سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الثالث

إعدام صدام

obeikan.com

obeikan.com

١ - النهاية

قبل أن يمضى عام ٢٠٠٦ الذى أرسى قواعد زمن المذبحة .. أراد سلاطين الخوف الذين توحدت إرادتهم مع السلطة الحاكمة أن يحفروا فى أذهان العراقيين والعالم مشهد النهاية لعصر صدام حسين من خلال مشهَدَ إعدام الرئيس الذى تناقلته كل شاشات العالم ، لتغيرَ دقيقتان وثمانية وثلاثون ثانية آلملامح المميزة لطقوس ذلك اليوم الذي صادفَ أول أيام عيد الأضحى عند العرب السنة [1] حيث اعتاد العراقيون أن يحتفل السنة بالعيد على يومين وأحيانا ثلاثة فالسنة يبدأ عيدهم مع المملكة العربية السعودية ويليهم الشيعة التابعون للمرجع الأعلى آية الله على السيستانى وفى أحيان أخرى يتأخر أتباع الصدر ليوم آخر أو يستجيبون لتوقيت السيستانى .

في السادسة إلا خمس دقائق تقريبا من صباح يوم السبت، الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) عام ٢٠٠٦، الموافق العاشر من ذى الحجة جاءنى صوت زميلى عمر محمد مراسل قناة « الحرة عراق» ليؤكد تنفيذ حكم الإعدام شنقا فى « السيد الرئيس» بعد ليلة طويلة من السهر انتظارا للخبر الذى احتل شاشات وصفحات الجرائد فى العالم الذى كان يترقبُ آنذاك تصريحات المسؤولين العراقيين، ليلة وقفة عيد الأضحى ؛ .. بعضها صدَر عن «مسؤول بارز» في وزارة العدل،.. وبعضها الآخر لـ«مسؤول رفيع المستوى»، فضَل عدم الكشف عن هويته، لتزيد ضبابية الموقف، ولا يحسمها تناقل وسائل الإعلام تأكيد القاضي في محكمة التمييز منير حداد بأن «كل الإجراءات تم اتخاذها.. أنا جاهز للحضور ولا يوجد سبب للتأجيل».

يتأخر رئيس الوزراء نوري المالكي في إعلانه الصريح لموعد تنفيذ الإعدام، وإنْ نُسبَتْ إليه تصريحات أطلقها حلفاؤه، لكن بعد تصريحه المتلفز الشهير ليلة الجمعة «لا رجعة في الحكم ولا تأخير في تنفيذه» .. راحت ردود الفعل العراقية، الرسمية والشعبية، تغذي الانقسام الطائفي الذي تفجَّر ويزداد عمقا يوما بعد يوم .

إعدام صدام الذى غيَّر كثيراً من ملامح العيد في ذلك اليوم، وجعل أطفالاً يُقلدون تفاصيلها، فيلقى تسعة منهم حتفهم في أنحاء مختلفة من العالم وفق تقرير لوكالة أنباء «رويترز»، كان لها جزء ثانٍ سرعان ما ظهر وغذّى الانقسام

(1) جرت العادة بالعراق أن يحتفل الشيعة بالعيد سواء الفطر أو الأضحى بعد يوم من احتفال السنة وفقًا لحساباتهم الفلكية .

الطائفي، عراقيا وعربيا.

اعتبر السنّة العراقيون التوقيت تجاوزا على النصوص الدستورية، التي تحظر الإعدام في يوم العطل، ورأوا أن الهدف الحقيقي كان إيذاء مشاعرهم، خصوصا وأن الطائفة الشيعية تحتفل بعيد الأضحى بعد يوم واحد من السنّة.

وذهَب المزاجُ الشعبي نحو تأويل مرامي التوقيت، حدَّ ربطه بقصدية أن يتمّ التعبير عن إعدام صدام يوم عيد الأضحى باعتباره «أضحية»، وهو القول الذي قاله صراحة مستشار الأمن القومي العراقي موفق الربيعي قبل تنفيذ الحكم الذي كان صدر قبل عشرين يوما من تنفيذه، وكان يحتاجُ إلى عشرة أيام أخرى حتى يخرج إلى حيِّز التنفيذ، ما يعني، وفق الرؤية المعارضة، إصرارا مستميتا لأن يكون الإعدام صبيحة يوم العيد.

لكن خطوة الإعدام، بتوقيتها والملابسات التي حدثت أثناءها، لم تلقَ ترحيباً حتى من ألدِّ أعداء صدام، فباستثناء تأييد إيران، وارتياح الولايات المتحدة والدول الحليفة مثل إسرائيل، فإن الباقين عبروا بحذر، وكان أبرز ردود الفعل هذه تعليق الكويت التي احتلها الجيش العراقي في عهد صدام لسبعة أشهر في العام ١٩٩٠، إذ اعتبرت الجارة الجنوبية للعراق حادثة الإعدام «شأناً عراقياً داخلياً»، بينما استغربتْ المملكة العربية السعودية، تنفيذ الإعدام فجر يوم عيد الأضحى، ورأته «تلويحاً ضد المسلمين السنّة».

أما الفقرة الثانية فى مسلسل الشحن الطائفى الذى كرسه إعدام صدام فجر يوم عيد الأضحى فهو الشريط الذى تسرَّبَ عبر موقع «اليوتيوب»، وتضمن تفاصيل لم تظهر في الشريط الذي بثه الإعلام الرسمي العراقي فى الساعة الثامنة من صباح يوم الإعدام ، ودعمت «فرضية الانتقام الشيعي»، لدى السنّة؛ إذ يُسمع عدد من الحاضرين يرددون: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وعجّل فرجه والعن عدوه»، وهو دعاء شيعي يتمنى خروج المهدي المنتظر والنصر على أعدائه يردده أنصار التيار الصدري.

ويرد صدام: «هي هاي المرجلة»، عندما يصرخ أحدهم «مقتدى مقتدى»، قاصداً الزعيم الشيعي مقتدى الصدر، وهو الابن الرابع للزعيم الشيعي محمد صادق الصدر الذي اغتيل في فبراير عام ١٩٩٩، واتهم النظام العراقي السابق بقتله.

وباتتْ مفرداتُ الحادثة مفتوحة للقراءات الموجَّهة، فمكان الإعدام في قاعة الاستخبارات العسكرية العراقية السابقة،» الشعبة الخامسة» والتي كان صدام يوجّه منها الحرب ضد إيران (١٩٨٠ــ ١٩٨٨)، والحبلُ تم عقده بـ ٣٩ عقدة، وفق محامي الرئيس الراحل، خليل الدليمي، وهو عدد الصواريخ التي أطلقها صدام على

إسرائيل في حرب الخليج الثانية.

التفاصيل، التي تناسلتْ وحلّت مكان أحاديث العيد السودودة في ذلك اليوم، تراءى لها خيال الصدر ضمن الملثمين الذين ظهروا على منصةّ الإعدام، وأصوات صراخ توزّعَ تحليل مصادرها على الأيام الأربعة التي سجلت حادثة لم يشهدها العصر الحديث .

وكما كان صدام حسين مثيرا للجدل فى حياته فقد أثار جدلا أكبر بمماته وتباينت الآراء حول الإعدام ، لم يؤيده علنا إلا الولايات المتحدة،واستراليا وإسرائيل، وإيران هذه الأخيرة اعتبرت كذ لك أن الحدث يشكل نصراً للعراقيين ، أما الكويت فقد اعتبرت الامر شأنا عراقيا. الفاتيكان استنكره واعتبره فاجعة، والاتحاد الأوروبي اعتبره خطأ فادح،روسيا أدانت الولايات المتحدة رسميا لعدم الإصغاء للمجتمع الدولي، على الصعيد العربي تحفظت معظم الدول العربية على التعليق إلا ليبيا أعلنت الحداد، السعودية استهجنت واستغربت إعدامه فجر عيد الأضحى فيما يبدو تلويحا ضد المسلمين وذكرت في بيان رسمي أن المحكمة باطلة كونها أنشئت في ظل احتلال وإعدامه قد يؤجج الصراع الطائفي في العراق وذكر البيان بأن محاكمة رئيس دولة حكم أكثر من ٣٠ عاماً تمت بسرعة وبطريقة هزلية وغير قانونية ونفس الموقف عبر عنه رئيس أفغانستان حامد كرزاي وبيان مصر،ماليزيا التي كانت تتولى رئاسة منظمة المؤتمر الإسلامي استنكرت الإعدام وشن رئيس وزرائها السابق مهاتير محمد هجوما على أمريكا واصفا الإعدام بهمجية جديدة للرئيس بوش ، حماس التي تتولى رئاسة الوزراء بفلسطين اعتبرته اغتيالا سياسيا وكذلك حركة الإخوان المسلمين وجميع فصائل المقاومة بفلسطين.

٢ - ضمير قاضى الإعدام

القاضي منير حداد الذي أعدم صدام حسين كان أول قاض بعد زميله رائد جوحي التقى صدام عقب اعتقاله، وكان يشغل منصب نائب رئيس المحكمة الجنائية العراقية العليا وأحد القضاة السبعة الذين وقعوا على إعدام صدام وكل من عواد البندر، وبرزان التكريتي، وجددوا العقوبة على طه ياسين رمضان من الحكم بالسجن المؤبد إلى الإعدام.

يروى القاضى الكردى أنه في ٢٣-١٢-٢٠٠٦، ذهب إلى قاضي التمييز زهير عبد الصاحب وطلب اليه اكمال القرار التمييزي في قضية الدجيل خلال فترة لا

تتجاوز ٤ أيام، فوافق لكنه فوجيء به يقول «إنني قد شملت بقرار الاجتثاث من قبل «هيئة اجتثاث البعث» بدعوى انني كنت بعثيا، فيما أنا برئ من ذلك ولا علاقة لي بالبعث، لذا أريدك أن تتدخل لدى رئيس الوزراء نوري المالكي شخصيا لرفع هذا الحيف الذي لحق بي».

توجهت إلى المالكي وعرضت عليه الأمر فقال «لا مانع من استثنائه ورفع الحيف عنه».

في ٢٦-١٢-٢٠٠٦، اجتمعت الهيئة التمييزية للمحكمة بحضور سبعة من أعضائها التسعة، لأن العضو الثامن كان في الحج، والتاسع كان يتمتع بإجازته في محافظة أربيل.

خلال هذا الاجتماع تم تصديق الحكم بالإعدام على صدام حسين وعواد البندر وبرزان التكريتي مع المصادقة على تشديد الحكم من المؤبد إلى الإعدام على طه ياسين رمضان.

بعدها، وصل وفد قضائي أمريكي برئاسة سيدة أمريكية تحمل الدكتوراه في القانون الدولي الجنائي بعنوان تقديم المشورة لنا، لكننا انتهينا من صياغة المصادقة على الحكم قبيل وصول هذا الوفد، وقد علموا من خلال وسائل الإعلام أننا قد انتهينا من تحرير صياغة قرار التمييز بالإعدام.

وفي ٢٩-١٢-٢٠٠٦، اتصل بي مكتب رئيس الوزراء طالبا حضوري، فتوجهت إلى هناك ووجدت المالكي جالسا مع مدير مكتبه الدكتور طارق نجم العبدالله، ومستشاره السياسي صادق الركابي، فسألني «شنو عندك؟»، أي ماذا عندك؟

فقلت له: غداً أسافر إلى هولندا في إجازة. فرد علي «أنت لا تسافر وأنت الذي تنفذ حكم الإعدام بصدام، إذا كان ذلك جائزا من الناحية القانونية؟».

فأجبته «نعم، يجوز، وفي أصول المحاكمات الجزائية عدة مواد تتعلق بتنفيذ أحكام الإعدام وإجراءاتها تجيز ذلك».

فقال لي رئيس الوزراء «على بركة الله».

في ليلة تنفيذ الحكم اتصل بي هاتفياً رئيس المحكمة عارف شاهين من محافظة السليمانية بعد أن عرف أن الحكم سيتم تنفيذه غداً، وقال لي «لا تعدم صدام حسين، واطلب من رئيس الوزراء إرجاء التنفيذ، لأننا لم نعلم بعد، من له صلاحية التنفيذ، الرئيس جلال طالباني أم رئيس الوزراء؟». لكنني لم أبلغ المالكي بذلك إلا بعد التنفيذ وتحديدا خلال استقباله للمهنئين بعيد الأضحى، وكان من بينهم

رئيس أركان الجيش ومجموعة من كبار الضباط.

سمعت أن السفير الأمريكي السابق في بغداد زلماي خليل زاد قد اتصل هاتفيا برئيس الوزراء طالبا منه تأجيل التنفيذ، لكن المالكي رفض بشدة وهدد بتقديم استقالته عبر وسائل الإعلام بسبب تدخل أميركا في الشأن القضائي، فتراجع السفير الأمريكي عن طلبه.

في الساعة الخامسة والربع من صبيحة يوم ٣٠-١٢-٢٠٠٦ توجهت إلى مبنى مديرية الاستخبارات العسكرية السابقة، والتي هي الآن «سجن الحماية القصوى» الكائنة في الكاظمية، جلست هناك في غرفة مع وزير العدل، والمدعي العام، وقد أدخل علينا صدام حسين مكبلا وهو يحمل نسخة من القرآن الكريم بيده. .جلس على الكرسي وبقي يردد «لعنة الله على الأمريكان والإيرانيين، أنتم في النار ونحن في الجنة، المجد والخلود للعراق والأمة العربية، تعيش فلسطين».

تلوت عليه قرار محكمة الجنايات الأولى بإعدامه شنقا حتى الموت ثم القرار التمييزي بتصديق حكم الإعدام، ثم تلي عليه الأمر الديواني الموقع من رئيس الوزراء، فبقي يشتم بصوت عال، وكان أحد أفراد الشرطة الموجودين معنا، قال له «ليش حطمتنا وحطمت البلد بالحروب على إيران والكويت؟»، فرد على الشرطي بالقول «أنا حاربت أعداء العراق والأمة العربية».

ثم سأله المدعي العام «لمن تهدي قرآنك الذي بيدك؟»، فأجاب: «للمحامي بدر عواد البندر» أحد محاميّ الدفاع عن صدام.

فأخذ المدعي العام منه القرآن ثم اصطحبناه إلى مكان المشنقة وأثناء صعوده اليها، قلت له: «لا يوجد معنا رجل دين، فقل لي وصيتك لأوصلها بأمانة». فرد علي قائلا «تعيش ليست لدي وصية».

رفض صدام وضع الكيس في رأسه.. وقد تم شنقه فوقع سريعا ومات في الحال».

طلبت من المستشار السياسي لرئيس الوزراء صادق الركابي سيجارة لأدخن، ففتح علبة التدخين ووجد فيها سيجارة واحدة أعطاني إياها فرفضت.

أحسست أن الدنيا لا تساوي شيئا وقلت للركابي في حينها هذا صدام الذي كان الناس يخشون ذكر اسمه معلق في حبل المشنقة فحصه الطبيب وتأكد من موته، ثم قمت بتنظيم محضر تنفيذ الحكم ووقعت عليه ثم وقع عليه أيضا المدعي العام، وممثل رئيس الوزراء والطبيب، ورئيس السجن.

كنا ١٤ شخصا عدنا كل ٧ أشخاص بطائرة مروحية إلى المطار في المنطقة

الخضراء وكانت إحدى هاتين الطائرتين تحمل جثة صدام حسين مع الأشخاص السبعة فيما صعدت أنا الطائرة الأخرى

هبطت الطائرتان في المطار، وأقلت إحدى سيارات الإسعاف جثة صدام إلى منزل مجاور لمنزل رئيس الوزراء، وفي اليوم نفسه وصل وفد من محافظة صلاح الدين برئاسة نائب المحافظ عبد الله جباره الجبوري وطلبوا نقل الجثمان إلى هناك ووافق المالكي فتم نقله .

٣ - الحاكم رزكار

تبقى مسألة استقالة القاضي رزكار محمد أمين من رئاسة المحكمة التى أدانت الرئيس السابق صدام حسين فى قضية الدجل وأسبابها، من المسائل ذات الأهمية البالغة، ومن الأحداث البارزة في تأريخ القضاء العراقي في العصر الحديث.

ينادونه فى إقليم كردستان حيث يقيم « الحاكم رزكار» ويحظى باحترام شديد لدى الجميع حكاما ومحكومين .. يرفض الحديث عما دار فى الغرف المغلقة وخلف الستار ودفعه للاستقالة والتخلى عن الشهرة التى تتيحها محاكمة شخص مثل صدام حسين الذى كانت وقائع جلسات محاكته تنقل على شاشات التلفاز يوميا الا أنه قال ذات مرة عندما سئل عن إعدام صدام حسين « هناك إشكالات قانونية في مسألة ضرورة صدور المرسوم الجمهوري بالتنفيذ و اختيار يوم العيد و العطلة الرسمية للتنفيذ فبموجب المادة (٢٩٠) من قانون أصول المحاكمات الجزائية العراقي رقم ٢٣ لسنة١٩٧١ المعدل لا يجوز تنفيذ عقوبة الإعدام في أيام العطلات الرسمية و الأعياد الخاصة بديانة المحكوم عليه « .. كما لم تمض مدة ثلاثون يوما على تصديق الحكم .

بعد حوالى عامين على استقالة رزكار المسببة نشر خطاب الاستقالة عبر مواقع للانترنت .. وللحقيقة فإننى حاولت التأكد من الرجل شخصيا عن هذا الخطاب لكن الظروف حالت دون لقائى به حيث يقيم فى إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق .. الا أننى آثرت أن أنشر الخطاب كما هو منشور فى أكثر من موقع ربما يتيح دلالات معينة عن حقيقة ما جرى قبله وبعده رغم عدم اهتمام الصحافة العربية بهذه الاستقالة ، إلا أن نص الاستقالة يستحق النشر والتوثيق نظراً لأهميته التاريخية والقانونية.

نص خطاب استقالة القاضي رزكار محمد أمين

السيد رئيس المحكمة الجنائية العليا.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد...

أتقدم بوافر التقدير والاحترام لسعادتكم وأقدم لكم كتاب استقالتى من إدارة محاكمة الرئيس صدام حسين والآخرين الذين معه. استقالة مسببة... وللتاريخ فإننى أضع أسبابها بين أيديكم راجياً تحقيق العدالة فى عراقنا الحبيب.

١- أنتم تعلمون سعادتكم مدى فداحة الضغوط التى تمارس على إدارة المحكمة من قبل السلطة الحاكمة الحالية، ضغوط دولية وسلطوية لا يمكن للفرد ومهما يكن أن يتحملها، ولا يمكن لأى فرد يملك قليلاً من الشرف أن يتقبلها... فهؤلاء يا صاحب السعادة لا يريدون محكمة تحاكم الرئيس صدام حسين وأصحابه بل يريدون منّا أن نأخذ دور ممثلين فى مسرحية يتم تأليفها وإخراجها من قبلهم.

٢- عظمة هذا الرجل صدام حسين وشيبته ووقاره، والحق الذى يقف به أمام المحكمة، تجعل إدارة المحكمة فى موقف ضعف لا تحسد عليه وتجعلنا فى حيرة من أمرنا وصراع كبير بين ضمير عاشق خالص مع بعضه لهذا الرجل العظيم وبين ما يملى علينا من رغبات لمجاميع طائفية لا تملك فى تلك المحكمة غير الحقد والكراهية والطائفية.

٣- وفوق عظمة هذا الرجل تأتى عظمة القانون والشرع الذى لا تملكه محكمتنا هذه، فلا قانون سابق يؤهلنا لنحاكم هذا الرجل، ولا قانون جديد يشّرع لنا محاكمته على أعمال قديمة، فانتهينا إلى شعور بأننا أصبحنا مفضوحين أمام ضمائرنا وعيون الشعوب الشريفة.

هذه أسباب، وهناك أسباب أخرى كثيرة، قد أستطيع أن أذكر منها؛ إجلالاً وتقديرى لشخص هذا الرجل وثقتى بنزاهته وتجرده من أطماع يتقاتل عليها الفرقاء.

عليه أرجو قبول الاستقالة التى لا رجعة فيها ومهما كانت الأسباب... وكان الله فى عون من سوف يجلس على كرسينا هذا حتى ولو اختاروا بديلاً مصنوعاً من الخشب فو الله إن وقف هذا البديل أمام ذاك الرجل فسوف يحى فيه ضميره الخشبي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رزكار محمد أمين

قاضى محكمة الرئيس صدام

الاثنين ٣ ربيع الثانى ١٤٢٧ - ١ مايو/ أيار ٢٠٠٦.

٤ - عار

يقول المثل الأمريكى « الغضب ريح قوية تطفىء نار العقل »

مهما كان العدو فإن للموت قدسية وللميت احترام ولجثته هيبة .. تفرض كل الشرائع والأعراف احترام لحظات الموت .. إلا أن ما حدث وجرى فضحه ساعة إعدام صدام كان عارا بكل المقاييس ربما لم يدرك منفذوه مدى رسوخه على مدى التاريخ ملتصقا بهم بعد أن قادتهم شهوة الانتقام إلى ارتكابه .. فبعد تنفيذ الإعدام بساعات قليلة انتشر فيلم تم التقاطه بهاتف محمول على الانترنت يصور اللحظات التى سبقت تنفيذ الإعدام .. وعلى الرغم من أن مروجى هذا الفيلم أرادو التشفى وتكريس النصر على العدو إلا أنهم كرسوا انتصاره عليهم بظهوره هادئا متماسكا حيث نطق الشهادة وتجاهل شعارات عدم الاحترام من حوله وواجه الموت مبتسما وهو يقول لمن وقفوا يتشفون فيه « هى هاى المرجلة» أى «هذه هى الرجولة ؟؟ « وقد أسهم هذا الفيلم خلافا لما أراد مروجوه فى التشكيك حول كل الإعلانات الرسمية حول ارتعاده من الموت وانهياره لحظة تنفيذ حكم الإعدام كما صرح مستشار الأمن القومى صاحب التصريحات المثيرة للجدل والتى ظهرت عدم صدقيتها فيما بعد سواء لحظة اعتقال صدام أو لحظة إعدامه .

٥ - مشهد الإعدام

شريط إعدام صدام عبارة عن فيلم صُوِّر بواسطة جهاز هاتف محمول مزود بكاميرا تصوير مدته ٢:٣٨ دقيقة ،عرضته قناة الجزيرة ،يصور أخر لحظات لإعدام رئيس العراق السابق صدام حسين في منظر غير رسمي احتفالي وكأنه كان انتقاميا بعكس ما صرحت به الحكومة العراقية أنه لم توجه أي إهانات لصدام حسين وتمت العمليه بكل احترافية واحترام ويعتقد على نطاق واسع أن أحد عناصر فرقة الإعدام واسمه علاء وهو من مسلمي العراق الشيعة هو مصور الشريط حيث يظهر الفيلم أنه كان يهتف باسم محمد باقر الصدر بلهجة أهل جنوب العراق وقد قام أحدهم بمناداته باسم علاء.

يظهر الفيلم قاعة بارتفاع ما يقرب من خمسة أمتار بأحد مباني المخابرات العراقية السابقة و تحديدا مبنى الشعبة الخامسة في الكاظمية شمالى العاصمة بغداد يوجد بها منصة على ارتفاع ثلاثة أمتار حيث قام المصور بالتصوير بالقرب من درج حديدي على يسار القاعة يؤدي إلى المنصة حيث ظهر صدام حسين وقد

قيدت يداه إلى الخلف ويوجد عدد من الرجال المقنعين بلباس مدني حوله.

ويصور الفيلم رفض صدام ارتداء الكيس الأسود لتغطية رأسه ثم قوله : «يا الله».

ثم تقدم صدام باتجاه المشنقة ووقف على المنصة بهدوء محاطًا بالحراس وقام احد الحراس بلف الكيس الأسود على رقبتة ومن ثم لف حبل الإعدام والأنشوطة على يسار صدام.

ثم سمع عدد من الحاضرين يرددون «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، وعجل فرجه وانصر على عدوه» (وهو دعاء شيعي يتمنون خروج المهدي المنتظر والنصر على أعدائه).

ثم صرخ أحدهم «مقتدى مقتدى مقتدى».

فرد صدام عليه وقال : «هي هاي المرجلة» (وهي باللهجة العامية للعراقيين وتعنى هل هذه هي الرجولة ؟).

وهو مبتسم باستهزاء واضح في الفيلم.

ثم سمع أحد الحاضرين يقول «إلى جهنم».

وهتف آخر «عاش محمد باقر الصدر».

من جانب صدام تجاهل الصياح وردد صدام «أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله».

فقال آخر ويعتقد أنه المدعى العام منقذ آل فرعون «يا إخوان أرجوكم الرجل في إعدام، أرجوكم».

وقد أكمل بعض المجتمعين بالهتافات مشابهة.

وقام أحد الحراس فطلب من صدام إعادة الشهادتين.

وما أن أعاد صدام تكرار الشهادتين حتى سمع صوت طرقعة يعتقد أنه صوت فتح البوابة الحديدية تحت أقدام صدام ويسقط في حفرة الإعدام.

ثم سمع صوت أحد الحضور يصيح «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد».

وصرخ آخر «سقط الطاغية لعنة الله عليه».

وساد الصياح والهتاف في القاعة وسمع كلمات ليست عربية يعتقد أنها فارسية.

ثم ظهرت صورة صدام وهو معلق وينظر إلى أعلى .

أصدرت الحكومة العراقية أوامر بالتحقيق حول من قام بتصوير هذا الفيلم ومن هم الأشخاص الذين هتفوا في غرفة الإعدام كما أمرت بإغلاق قناة الشرقية والزوراء اللتين عرضتا الشريط بحجة التحريض..مساعد المدعي العام أكد أن الذين صوروا الفيلم بكاميرا هاتف محمول كانا مسؤولين رفيعي المستوى شهدا الإعدام، ورسميا لم يعلن عن أن مسؤول حضر تنفيذ الإعدام باستثناء موفق الربيعي مستشار الأمن القومى فى ذلك الوقت .

٦ - الفرعون يرقص

أظهر شريط فيديو جديد بعد يوم من عملية الإعدام جرت وقائعه عند تسليم جثة صدام حسين التى سيرد ذكر تفاصيلها ووقائعها لاحقا على لسان الرجل الذى وقع وثيقة الاستلام وهو عبد الله جبارة نائب محافظ صلاح الدين .. أظهر الفيلم المدعي العام لمحكمة الدجيل منقذ الفرعون الذى رأس هيئة الادعاء العام في قضية الأنفال بعد أن كان نائب رئيس هيئة الادعاء في قضية الدجيل التي أدين بها صدام حسين .محمولا على الأكتاف بعد خروجه من بناية رئاسة الوزراء مرددا شعارات طائفية مع العشرات من المسلحين العسكريين والمدنيين احتفالا بإعدام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين، ويظهر أيضا جثمان صدام وقد بدت جروح في وجهه تؤكد تعرضه للضرب بعد عملية الإعدام وهو ما نفاه جبارة لى شخصيا وأكد أن الجثمان كانت به فقط اثر حبل الإعدام .

وفي الشريط الذي امتد دقيقتين وخمسين ثانية يظهر المدعي العام في محكمة الدجيل منقذ الفرعون الذي كان مكلفاً بالإشراف علي نقل الجثة من مقر الاستخبارات العسكرية في حي الكاظمية شمال بغداد، حيث جري تنفيذ الحكم، إلى المنطقة الخضراء المحصنة وسط العاصمة حيث تم تسليم الجثة إلى وفد من صلاح الدين لدفنها فى مسقط رأس صدام فى قرية العوجه .

وردد الفرعون مع عشرات المتظاهرين الذين حملوه علي الأكتاف شعار «منصورة يا شيعة حيدر» ، قبل أن تمر التظاهرة أمام مبني رئاسة الوزراء، وينقل إلى سيارة الإسعاف جثمان الرئيس السابق، بعد نحو ساعة من إعدامه، وقد لف بقماش أبيض، وبادر أحدهم إلى رفع القماش عن وجهه فيما ردد بعضهم عبارات السباب.

«وين الحاربك وينه» وتعنى باللهجة العراقية « أين الذى حاربك يا أنصار الإمام على» «صدام النذل وينه».

وسمع في شريط الفيديو صوت أحد الأشخاص الأربعة في داخل سيارة الإسعاف يطلب من الطبيب المشرف على الجثمان بالقدوم منبهًا على ضرورة استحصال نسخة من الشريط كما يحث ملتقط الفيديو على الإسراع في عملية التصوير، كما شوهد عدد من المتظاهرين يرقبون الجثمان من خلال شباك سيارة الإسعاف، واقترب مصور الفيديو من الجثمان المسجي، بعد كشف وجه صدام حسين الذي بدت آثار خدوش واضحة علي خده الأيسر، كما ظهر جرح قطعي في رقبته وآثار دماء بجوار فمه، وهو ما نتج عن عملية الإعدام.

٧ - أفراح بنى مالك

يقول الكواكبى « المستبد، فرد عاجز، لا حول له ولا قوة، إلا بالمجدين له».

فى الوقت الذى كانت مناطق داخل المنطقة الخضراء تشتعل احتفالا بإعدام صدام .. بينما تجرى فى غرف مغلقة مفاوضات حول مصير الجثة وإذا ما كان سيتم دفنها فى مكان سرى أو يجرى تسليمها إلى ذوى صدام لدفنها فى مسقط رأسه .. كانت حركة غير عادية من نوع آخر تجرى فى منزل رئيس الوزراء نورى المالكى داخل المنطقة الخضراء حيث كانت الاستعدادت على قدم وساق تجرى للاحتفال بزفاف ابنه أحمد ليلة إعدام صدام حسين .

ورغم أنه لم يتسنى لى التأكد من حقيقة وجود ترتيب مسبق أن يتم الاحتفال بعرس أحمد نورى المالكى ليلة تنفيذ حكم الإعدام فى صدام حسين أم لا .. إلا أن مظاهر البذخ التي تخللت حفل العرس والتى منعت السلطات تصويرها بأى شكل بعد أن تمت مصادرة كاميرات وهواتف المدعوين تؤكد أن حفل الزفاف ربما يعنى لأصحابه فرحتين .. فرحة النصر على عدو وإدخال الحزن إلى قلوب ذويه ومؤيديه يوم الاحتفال بعيد الأضحى .. وفرحة النشوة بإتمام العرس فى الليلة التى يحتفل بها الشيعة بعيد الأضحى أيضا / يحتفل الشيعة عادة بالأعياد بعد يوم من احتفال السنة ما عدا عام ٢٠٠٨ وما تبعها حيث أمر المرجع الشيعى الأعلى بالعراق آية الله على السيستانى بالاحتفال بالأعياد فى يوم واحد /.

ويفسر البعض إصرار نورى المالكى على تنفيذ حكم الإعدام فى هذا اليوم تحديدا وهو يوم عطلة رسمية وتهديده للسفير الأمريكى زلماى خليل زاد بأنه سيعتد مؤتمرا صحفيا يفضح فيه التدخلات الأمريكية فى الشأن الداخلى العراقى ما لم يوافق الأمريكيون على تسليم صدام لإعدامه هو دليل على ما أشيع من أن المالكي أقسم أمام ابنه وعدد من النسوة أن رأس صدام هو هدية المباركة

لابنه وزوجته وأنها المفاجأة التي أعدها لهذا الزفاف منذ شهرين وقد حضر الحفل الذى جرى وسط مظاهر من البذخ الشديد عسكريون أمريكيون وموظفون وموظفات من السفارة الأمريكية حيث منع رجال الحماية جميع النساء من اصطحاب الهواتف النقالة باستثناء إسراء ابنة المالكي نفسه التي كانت تصور بكاميرا ديجتال نوع سوني .

يقول الكاتب الصحفى الأمريكى الشهير توماس فريدمان « إن ما جرى يوم السبت أقرب إلى طقس الانتقام القبلى العشائرى منه إلى بلوغ العملية الدستورية العراقية ذروتها ».

ويقول جى سيمبسون مراسل البى بى سى فى بغداد « إن مشهد إعدام صدام حسين بدا كما رأيناه عملا قبيحا ومهينا فى مجمله ويحمل إلى الذاكرة صور ومشاهد الإعدامات العامة التى شهدها القرن الثامن عشر أكثر من أن تكون له علاقة بممارسة العدالة المسئولة المعتبرة فى قرننا الحالى » .

ويقول الكاتب اللبنانى طلال سلمان تعليقًا على ما حدث « من السهل نسبة هذه الجريمة إلى الاحتلال وهذا صحيح لكن هذا المتطوع لأن يتحمل المسئولية لا يقل خطورة عن الديكتاتور الذى تحول صبيحة الأضحى إلى شهيد للأمة التى قاتلها أو قاتل حتى يكاد يقتلها جميعا» .

٨ - العودة

كما شابت عملية اعتقال صدام ومحاكمته وإعدامه أمور لم يكشف عنها بالكامل حتى الآن وبينها مخالفات ومغالطات وأحداث اختلط فيها الواقع مع الخيال والرغبة فى الانتقام مع المطالبة بالقصاص العادل ..إلا أن الساعات التى تلت تنفيذ حكم الإعدام وخاصة مفاوضات الساعات الأخيرة التى سبقت دفنه .. وصراع الإرادات بين من يريد طمس قبره إلى حين .. ومن يريد الفوز بالجثة لإعادة الانتقام من جديد .. ومن يريد اقتناص فرصة للثراء إذا ما باع الجثة لأعداء انتظروا كثيرا انتهاء عصر جمهورية الخوف التى أسسها صدام على مدى فترة حكمه للعراق داخليا وخارجيا .. وبين من يرى أن صدام ليس شخصًا عاديًا وإنما هو رمز لدولة العراق .. وأنه يجب أن يتم دفنه بشكل يليق برئيس جمهورية سابق أو على الأقل دفنه بكرامة فى مسقط رأسه كما أوصى .. وبين من يريد أن يتم دفنه بشكل اعتيادى يحمل بعض اللياقة برجل كتب بعض سطور التاريخ بقراراته وحروبه وصداقاته وعداواته حتى تنتهى الأسطورة بهدوء ويغلق باب ردود

الفعل التى تسكب الزيت على نار العراق المحترق بفعل الفتنة الطائفية التى تأكل أبناءه من سنة وشيعة .

رجل واحد كانت عنده خيوط اللعبة .. يعرف حدود التفاوض .. مخاطر الانتظار بلا قرار .. مكامن الخطر فى تعثر سير المفاوضات .. مكامن القوة لدى الكارهين ومكامن القوة لدى المحبين .. سيناريوهات الرعب التى تنتظر البلاد والعباد إذا جرى ما يسوء بسبب إغفال أى احتمال فى عملية تسلم الجثة ونقلها ودفنها .

عبد الله حسين جبارة الجبورى نائب محافظ صلاح الدين وقت الأزمة .. ضابط سابق فى الجيش العراقى يتحدث الإنجليزية بطلاقة .. له امتداد عشائرى وعائلى عريق .. يحكم محافظة صلاح الدين فعليا منذ أن أسند إليه محافظها الأسبق اللواء حسين جاسم جبارة مهام التنسيق مع القوات الأمريكية عندما تولى منصبه كأول محافظ لصلاح الدين عقب الاحتلال الأمريكى .. يرتبط بعلاقات طيبة مع العراقيين والأمريكيين على حد سواء ليس فقط لوضعه العشائرى ولإنما لأنه رجل من هذا الصنف الذى يحتاج إليه أى حكم رشيد حتى ينجح فى ادارة شئون البلاد والعباد .

روى لى «أبو خالد » كما يناودنه فى بلدته « العلم » فى سهرة ربيعية رائعة على ضفاف نهر دجلة وعلى مدى حوالى خمس ساعات ما جرى وكيف سارت الأمور فى لحظة تاريخية فارقة كان يمكن أن تقلب الأوضاع فى عراق يحترق وتحيل أرضه السواد إلى حرائق لا يسكت لهيبها أبدا .

يقول أبو خالد .. عندما صدر الحكم بإعدام صدام حسين وتمت المصادقة عليه خرجت المظاهرات فى كافة أنحاء العراق وشارك فيها حتى أعداء صدام وكنا نتوقع أن يتم تأجيل التنفيذ نظرا لخطورة الأمر وتأثيره الكارثى على الأوضاع فى العراق خلال تلك الفترة من عام ٢٠٠٦ .. إلا أن الأمور كانت تسير إلى جهة تنفيذ الحكم لا محالة ولهذا سافرت إلى بغداد بصحبة محافظ صلاح الدين حمد حمود ترافقنا السيدة ستيفانى مايلو ممثلة السفارة الأمريكية فى صلاح الدين التى كان لها دور كبير فى انجاز المهمة .. وطلبت منها تحديد موعد مع قائد القوات الأمريكية فى العراق والسفير الأمريكى وما يمكن من مسئولين عراقيين لمناقشة التطورات والسيناريوهات التى يمكن أن تحدث فى حالة تنفيذ الحكم بإعدام صدام حسين .. وبالفعل غادرنا على متن طائرة هليكوبتر أمريكية مساء الأربعاء ٢٧ / ١٢ / ٢٠٠٦ لنبيت فى فندق الرشيد داخل المنطقة الخضراء والتقينا السفير الأمريكى وقائد القوات الأمريكية صباح اليوم التالى وتحدثت إليهما عن

انعكاسات تنفيذ حكم الإعدام على الوضع الأمنى بشكل خاص وعلى الوضع العراقى بشكل عام .. طرحت العديد من النقاط وطلبت عدم تنفيذ حكم الإعدام فى الوقت الراهن لأسباب عديدة أهمها تدهور الوضع الأمنى.

وبعد لقاء المسئولين الأمريكيين التقيت مع نائب الرئيس السنى الدكتور طارق الهاشمى الذى يرأس الحزب الإسلامى وصاحب النفوذ الواسع فى محافظة صلاح الدين وطرحت نفس النقاط ونفس الهواجس بالإضافة إلى أفكارنا حول الموضوع .

عدنا بالطائرة الأمريكية مساء نفس اليوم « الخميس» حتى نجهز لاحتفالات عيد الأضحى التى كانت ستحل يوم السبت ٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٦ .. وبينما كنت أؤدى صلاة العيد فى المسجد وبعد انتهاء خطبة العيد جاء أخى محمد وأخبرنى بأنه جرى تنفيذ حكم الإعدام فى صدام حسين .. خرجت مسرعا من المسجد واتصلت بالمحافظ الذى أخبرنى بأنه يحاول الاتصال بى منذ فترة بعد أن أبلغته رئاسة الوزراء بأنه تم تنفيذ الحكم طالبين الحضور للمشاركة فى دفن جثمان صدام حسين فى مكان سرى فى بغداد حتى يأتى وقت مناسب للإعلان عن المكان أو نقله للدفن فى مكان آخر وأنه جهز موكبه وأفراد حمايته للسفر إلى بغداد ويريد معرفة رأيى .. فأكدت للمحافظ أن التاريخ لا يرحم وأن حضورنا دفن صدام فى مكان سرى فى بغداد سيلحق بنا وحممه قد تطال حتى عوائلنا .. قلت للمحافظ أن صدام حسين أعدم ولكن علينا أن نحاول جلب جثمانه إلى مسقط رأسه فى تكريت ودفنه باحترام لأنه رئيس دولة سابق لمدة أكثر من ٣٠ سنة .

طلبت من المحافظ الاتصال برئاسة الوزراء وإخبارهم بأن وفداً سيضمنى إلى جانب على الندا شيخ عشيرة البيجات « عشيرة صدام حسين »[1] سيذهب إلى بغداد بصحبة المحافظ لاستلام جثمان صدام حسين ودفنه فى تكريت وفى حالة رفضهم ذلك نعتذر عن الذهاب لنكون شهوداً على دفن صدام فى مكان سرى كما أرادوا.. طلبت هذا الأمر ليس حبا فى صدام حسين لأننى أعتبره مسئولا عن كل ما جرى للعراق والعراقيين سابقا بسبب سياساته الخاطئة ولكننى كنت أخشى أن تقوم الميليشيات المسلحة أو تنظيم القاعدة بخطف الجثمان وبيعه لإيران أو إسرائيل لكى يهان هناك وتقام عليه حفلات التشفى وتصبح وصمة عار فى تاريخ العراقيين تستمر لعشرات بل ومئات السنين .. كنت أخشى أن يقول الإيرانيون أو الاسرائيليون للعراقيين ويفتخرون بأن صدام الذى حاربهم دفع الثمن باهظا ..

(1) ينتمي صدام حسين إلى فرع البيجات من عشيرة البوناصر التي تضم فرعًا آخر هم اللطيفات .

وأن هذا قبره تحت أقدامنا وهذا ما دعانى للإصرار على جلب جثمان صدام حسين ودفنه فى تكريت تحت إشرافنا .. وقد أيدنى المحافظ وقال سأتصل بهم .. ثم عاد واتصل بي بعد قليل وقال أنهم يقولون « لا تفكروا بهذا الأمر مطلقا .. وقلت أنا بدورى لن نذهب مطلقا .

بعد ذلك اتصلت بالسيدة ستيفانى وأخبرتها بتفاصيل ما جرى وطلبت المساعدة فى إقناع الحكومة العراقية بجلب الجثمان ودفنه فى تكريت لأن عدم حصول ذلك سوف يؤدى إلى إشعال نار الفتنة والفوضى والمشاكل الأمنية التى لا يمكن لأحد أن يحدد مداها .. وشرحت لها أهمية أنه لابد أن يدفن باحترام بعد أن تم إعدامه يوم العيد المقدس لدى المسلمين وما لذلك من آثار نفسية .. اقتنعت المسئولة الأمريكية بهذا الرأى وأيدت طلبى بضرورة دفنه فى تكريت .. واستمرت الاتصالات وسط رفض السلطات العراقية لطلب دفن صدام حسين فى مسقط رأسه بقرية العوجه بتكريت بإشراف أهله وعشيرته .

٩ - تدخل بوش

يقول أبو خالد .. أبلغتنى السيدة ستيفانى بأن الأمر الآن مطروح على أعلى المستويات فى أمريكا وسوف نستمر بالضغط لمتابعة الموضوع .. وفى تلك الأثناء كنت على اتصال بالمحافظ وأخبرنى أنه تعرض لضغوط كثيرة للسفر إلى بغداد وإنهاء الأمر إلا أنه رفضها وتمسك بالموقف الموحد وهو تسلم جثمان صدام حسين ودفنه فى تكريت .

وفى حدود الساعة الثانية والنصف ظهرا أخبرنى المحافظ أنهم اتصلوا به من رئاسة الوزراء وأبلغوه بالحضور للتفاوض حول الأمر وأخبرته أن هذه نقطة جيدة تدل على حلحلة الموقف وأننا سنذهب إلى بغداد على شرط ألا نحضر مراسم الدفن فى بغداد مهما كانت الظروف إذا لم نستطع الحصول على جثمان صدام لدفنه فى تكريت .. اتصلت بالسيدة استيفانى وأخبرتها بأننا يجب أن نذهب إلى بغداد ونريد تأمين طائرة لهذا الغرض وكان لديها علم بالأمر وقالت أن الطائرة جاهزة لنقل الوفد إلى بغداد .. استقل الوفد الطائرة من قاعدة سبايكر « قاعدة الكلية الجوية سابقا» وتقع شمال غرب تكريت وأقلعت فى تمام الخامسة مساء مع غياب الشمس ورافقنا من الجانب الأمريكى العقيد مارك إدمون معاون آمر اللواء الأمريكى المسئول عن محافظة صلاح الدين آنذاك .

وصلنا إلى مهبط طائرات بجوار القصر الجمهورى داخل المنطقة الخضراء

ووجدنا سيارات من رئاسة الوزراء فى انتظارنا لاصطحابنا بعد أن اعتذر العقيد مارك عن مرافقتنا إلى رئاسة الوزراء باعتبار أن هذا شأن عراقى وأن دوره انتهى ولا يمكن أن يتدخل فى الأمر إلا أنه سيبقى فى الانتظار لنقل الجثمان بالطائرة إذا وافقوا على تسلمنا له .. وطلبت أن يرسل المترجم الخاص لآمر اللواء وهو أمريكى من أصل مصرى يدعى عمر بغرض تأمين الاتصال بالأمريكيين عند الحاجة .

وصلنا إلى مقر رئاسة الوزراء فى السابعة والنصف مساء ودخلنا إحدى القاعات الخاصة وكان بها عبد الكريم العنزى وزير شئون الأمن الوطنى آنذاك والدكتور محمد سلمان مستشار رئيس الوزراء والدكتور طارق نجم مدير مكتبه .. وبعد تبادل المجاملات والشاى بدأ العنزى بالتحدث عن العاطفة والمسئولية وبين لنا أن المسئولية تستوجب الحفاظ على أرواح العراقيين وأن نقل جثمان صدام بشكل علنى قد يؤدى إلى حوادث أمنية خطيرة لذلك فان الحكومة قررت دفنه فى مكان سرى وأن علينا حضور مراسم الدفن لنكون شهداء على ذلك وعند تحسن الأوضاع الأمنية يمكن نقل الجثمان إلى مكان آخر وإعادة دفنه .. قاطعته قبل أن يكمل حديثه وأخبرته أن الوضع الأمنى سوف يتدهور فعلا وبشكل خطير إذا عرف أن جثمان صدام لم يسلم إلى ذويه لدفنه وستظهر شائعات تقول إن الجثمان قد يكون تم نقله إلى إيران أو إسرائيل وأخرى تقول أن صدام مازال على قيد الحياة وعليه فإننى أقترح على الحكومة أن تعامله بعد تنفيذ حكم الإعدام كرئيس سابق وتنظم له مراسم دفن وتشييع عسكرى ثم تسلمنا الجثمان لدفنه فى تكريت وأن هذا الأمر إذا حدث فسوف يظهر كياسة ومهنية الحكومة العراقية .. ووعدت بأنه إذا جرت الأمور على هذا النحو فسوف أظهر على شاشات التلفاز وأصدر بيانا من فضائية صلاح الدين أثنى فيه على دور الحكومة فى هذا الأمر وسوف يؤدى ذلك إلى امتصاص النقمة من الشارع العراقى .. وأننى أتعهد بالأمن فى صلاح الدين وسوف أصبح مسئولا عن أى خرق أمنى قد يحدث .. أما غير ذلك فلن نحضر الدفن فى مكان سرى ولن نكون مسئولين عن أى شيء يحدث .. أجاب العنزى أن هذا الأمر مرفوض جملة وتفصيلا .

عندئذ طرح المحافظ خياراً قال أن عائلة صدام حسين طلبته بأن ينقل جثمانه إلى اليمن أو يدفن فى محافظة الأنبار / أكبر المحافظات السنية بالعراق/ حسب وصية صدام إذا لم يدفن فى تكريت .. استشاط العنزى غضبا من هذا الطرح وقال بانفعال أن هذا الأمر لن يحصل أبدا وأن الحكومة قررت دفنه فى مكان سرى وأن علينا

كمسئولين رسميين / المحافظ ونائبه/ تنفيذ أوامر الحكومة .. قلت له أن منصب نائب المحافظ لا يعنى لى شيئا ولن أحضر الدفن بهذه الطريقة مهما كانت الظروف والأسباب .

١٠ - لغة الشيوخ

انفردت بالعنزى جانبا وأخبرته أن الكلام بلغة الشيوخ أفضل .. وسألته إذا لجأ صدام حسين إلى شيخ عشيرة « بنى عنيزه» / عشيرة عبد الكريم العنزى/ وآل هذال هل ستسلمه عشيرة عنيزه إلى السلطات؟ .. قال « لا والله» .. قلت له أنا الشيخ عبد جباره وأنا أكلم ابن هذال .. أريد منك جثمان صدام حسين .. تغير شكل الوزير عبد الكريم واحمر وجهه وقال « الله كريم» سنحاول ولكن عليك أن تضمن أنه لن يحدث أى خرق أمنى فى صلاح الدين .. رد المحافظ قائلا أن الأمن مكفول ومضمون ونحن مسئولون عن ذلك .. قال الشيخ على الندا رحمه الله أن الكلام عن دفن فى تكريت أفضل من أى مكان آخر .. أقسمت أنا بأنه إذا امتدت يد أى شخص إلى أحد دوائر الدولة أشحطه[1] بالشارع .. وإذا سلمتمونى جثمان صدام حسين سوف أصدر بيانا يشيد بالحكومة .. وإذا رفضتم فإننا سنعود إلى تكريت لنعلن ذلك وغير مسئولين عن أى شيء يحدث .

اصطحب العنزى كلا من الدكتور سليمان والدكتور طارق وذهبوا إلى رئيس الوزراء بينما أدينا صلاة العشاء أنا والمحافظ والشيخ الندا .. عاد العنزى ومن معه ليخبرونا بأن رئيس الوزراء وافق على تسليم الجثمان على أن يجرى الدفن ليلا فى تكريت مع شرط أن الحكومة غير مسئولة عن عملية نقل الجثمان إلى حيث مكان الدفن .. أخبرتهم بالموافقة لأننى أعلم أنه لا يمكن نقل الجثمان بالسيارات إلى تكريت لأننا لن نصل أبدا بسبب انتشار فرق الموت والمجموعات المسلحة التى تسيطر على الطريق كما أننى علمت بوجود مسلحين ينتظرون الموكب بالطريق داخل وخارج بغداد ومنهم عناصر من تنظيم القاعدة لأن مسألة ذهاب الوفد إلى بغداد لتسلم جثمان صدام كانت قد انتشرت عبر وسائل الإعلام والناس ينتظرون ما سيحدث .أخبرتهم أننا سنطلب مساعدة القوات الأمريكية فى نقل الجثمان وإذا رفضوا فسنوافق على الدفن فى مكان سرى ونعلن للناس أننا لم نتمكن من نقل الجثمان لأسباب أمنية .

(1) الشحطة : باللهجة العراقية تعني : السحل .

ذهبوا مرة أخرى إلى رئيس الوزراء وعادوا ليخبرونا بالموافقة وعندها طلبنا السماح بالذهاب إلى مكان الطائرة التى جاءت بنا من تكريت حيث ينتظرنا نائب أمر اللواء الأمريكى العقيد ادموند وعندما طلبت منه المساعدة قال أنه سوف يتصل بقيادة القوات الجوية الأمريكية لأنه ليس مصرحا له بإعطاء جواب على طلبى .. ثم اتصلت بالسيدة ستيفانى وطلبت المساعدة .. وأخبرتنى أن موظفا كبيرا بالسفارة الأمريكية سيأتى للقائنا وطرح بعض الأسئلة حول المهمة المطلوبة .

وبعد ١٠ دقائق وصل المسئول الأمريكى « موظف السفارة » وسألنى عن الدور الأمريكى فى العملية .. قلت له أنه لا يوجد دور أمريكى مطلقا عدا نقل الجثمان بالطائرة .. سألنى هل تطلبون تواجدا أمريكيا وقت الدفن فى تكريت .. أكدت له أننا لا نريد أى ظهور لتلك القوات وقت الدفن .. سألنى هل هذا العمل أفضل أمنيا .. قلت له نعم وأنا المسئول .

اتصل المسئول الأمريكى بوزارة الخارجية فى واشنطن وعلمت أنه اتصل بالوزيرة كوندليزا رايس شخصيا التى أبلغت بدورها الرئيس بوش وحصلت على موافقته .. وبعد ١٥ دقيقة جاءه الرد بالموافقة على نقل الجثمان بالطائرة .

عدنا إلى رئاسة الوزراء لإجراء مراسيم استلام الجثمان وطلبت شخصيا أن يجرى الكشف على جثة صدام أمام عدسات التلفاز لنتعرف عليه حتى لا يقال أن الجثة استبدلت وفى نفس الوقت أتأكد من عدم وجود علامات تعذيب على الجثة كما أشيع على نطاق واسع لأننى لابد أن أرد على ما يمكن أن يشاع أمام التاريخ ثم بعد ذلك نوقع وثيقة استلام الجثمان .

جلبوا لنا عشاء خفيفا رغم أن الوقت كان غير مناسب لتناول الطعام لكنهم أصروا على تقديم واجب الضيافة حتى يأتى الجثمان .

١١ - جثمان الرئيس

وصل الجثمان فى صندوق خشبى داخل حوض سيارة تابعة للشرطة / بيك آب ذات أربعة أبواب / .. فتحت الكفن وتعرفنا على الرئيس وعاينت بنفسى الجثمان وشاهدت الآثار الموجودة عليه .. كان مغسلا ومكفنا وأكدوا لنا أنه تم إقامة الصلاة عليه فى أحد المساجد بالمنطقة الخضراء .. لاحظت أن الجثمان تميل رقبته إلى الجانب الأيمن بشكل أكثر من الطبيعى وهناك بروز لعظم وجرح فى رقبته فى الجانب الأيسر وهناك خدش على خده الأيسر من منتصف الخد باتجاه الأعلى نحو عينه .. وهذه العلامات نتيجة تنفيذ حكم الإعدام شنقا ووضع عقدة

حبل الإعدام فى الجانب الأيسر من الوجه وليس إلى الخلف أو الأمام وهو ما أدى إلى كسر الرقبة وكشط بشرة الوجه نتيجة سقوطه من أعلى إلى أسفل قبل الإعدام .. ما عدا ذلك لم أجد أى آثار تدل على تعذيب أو اعتداء على الجثة كما أشيع .

وقعنا على وثيقة استلام الجثمان أنا والمحافظ والشيخ الندا .. ورافقت الجثمان إلى حيث تقف الطائرة ووضعناه مكان المقاعد الخلفية بعد أن طويت وربطنا التابوت بإحكام .. إلا أن الطائرة لم تتحرك إلا بعد حوالى ساعة كاملة وتحديدا فى الثانية والربع من صباح يوم ٣١ ديسمبر باتجاه تكريت .. أخبرنى أحد الضباط الأمريكيين المرافقين أن سبب التأخير هو اتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين مظلة جوية وطائرة أواكس لحماية الموكب الجوى الذى ينقل صدام حسين إلى مثواه الأخير .

وصلنا إلى قاعدة سبايكر حيث كان ينتظرنا قائد شرطة صلاح الدين اللواء حمد نامس وكانت درجة الحرارة ٢ تحت الصفر وهو ما أدى إلى أصابتنا بنزلة برد حادة .. تحرك موكب الجثمان بسيارات إلى قرية «العوجة » بعد وضع جثمان الرئيس فى احدى سيارات الشرطة وكانت الساعة تمام الرابعة صباحا عند وصولنا حيث سيتم دفن الجثمان .. كان أبناء «البيجات» جميعا فى انتظار وصول الجثمان .. كان الكثير منهم غير مصدق لما حدث ويحدث .. أخبرناهم أن الجثمان مغسل ومكفن ومصلى عليه .. جاء أحد الشيوخ وهو الملا جمعة الدهيمة وأيد أن الجثمان مغسل ومكفن على الطريقة الإسلامية .. كانوا قد أعدوا له قبراً فى قاعة المناسبات بالعوجة .. صلينا على الجثمان وواريناه الثرى .. قضينا ما تبقى من الليل فى دار المحافظ ودارت أحاديث مليئة بالحزن .. كان ما يعزز مشاعر التهر لدينا أن كل رؤساء العالم يخرجون إلى مثواهم الأخير معززين مكرمين فلماذا كتب على العراق أن يخرج رئيسه أيًا كان بهذه الطريقة .. وفى الصباح ألقيت بيانا عبر فضائية صلاح الدين شرحت ما جرى وشكرت الحكومة ورئيسها وكل منا ساعد فى إتمام الأمر .. أقيمت مجالس العزاء فى صلاح الدين ومناطق العراق .. وخلال أسبوع لم تشهد محافظة صلاح الدين أى حادث عنف .

كنت قد تسلمت مع الصندوق الخشبى الذى يضم الجثمان الكيس الأسود الذى رفض ارتداءه لحظة الإعدام .. الملابس التى ارتداها عند تنفيذ حكم الإعدام .. المصحف الذى رافقه خلال فترة سجنه وأوصى أن يسلم إلى المحامى بدر ابن قاضى الدجيل عواد البندر الذى تم إعدامه في ١٥ / ١ / ٢٠٠٧ وتم دفنه خارج القاعة التى بها قبر صدام حسين .. وظلت هذه الأشياء فى حوزة شيخ عشيرة

البيجات على الندا الذى قتلته القاعدة فيما بعد .

يقول أبو خالد أنه خضع لحالة من الزهد الشديد فى الدنيا وما فيها بعد انتهاء تلك الأزمة .. وعندما كان يجرى دفن الرجل الذى ملأ الدنيا ضجيجا وتعلقت بإشارة من يده مصائر ملايين البشر كنت أنا أدفن أى رغبة زاد الدنيا .. لأنه لا شيء يستحق كل هذه الصراعات والعدوات والانكسارات والانتصارات .. لا شيء يبقى إلا وجه الله .. تقول الحكمة التركية « أيها الإنسان لا تنس الموت .. فإنه لن ينساك ».

١٢ - الكلمة الأخيرة

روى لى أحد أقارب الرئيس الراحل صدام حسين من عشيرة البيجات ويدعى قصى عندما زرت قبر صدام فى قريته «العوجه» الساعات الأخيرة قبل الإعدام وكيف كانت لحظات عادية لشخص قرر أن يغادر بغداد فى رحلة طويلة إلى تكريت .. مؤكدا أن صدام لم يكن يشعر أن فى الأمر موت أو نهاية وإنما بداية جديدة فى مكان آخر لكنه يختلف عن حياة القصور والسلطة التى ودعها بعد انهيار نظامه فى العام ٢٠٠٣ ..

يقول قصى أن « السيد الرئيس» كما يصفونه دائما عند الحديث عنه ودع أخويه وطبان وسبعاوى تمهيداً لإعدامه بعد أن يتم تسليمه أولاً إلى الحكومة العراقية وكان ذلك يوم الخميس، في لقاء نادر بالسجن وأخبرهما بأنه سعيد لأنه سيلقى حتفه على أيدي أعدائه، ويصبح شهيداً، لا مجرد أن يقاسي عناء السجن»، وأعطاهم رسائل إلى عائلته كما سلمهم «رسالة وداعية»، أعلن فيها قبوله بـ«الشهادة» وحث الشعب العراقي على الوحدة .. وقال إنه يقدم نفسه «فداء فإذا أراد الرحمن هذا صعد بها إلى حيث يأمر سبحانه مع الصدّيقين والشهداء.. وأن أجَلَ قراره على وفق ما يرى فهو الرحمن الرحيم وهو الذي أنشأنا ونحن إليه راجعون، فصبراً جميلاً وبه المستعان على القوم الظالمين.» وحث صدام في رسالته الشعب العراقي المتنوع طائفياً وعرقياً على أن يصبحوا نموذجاً للحب والتسامح والتعايش، وانتقد كلاً من قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة وإيران حيث قال «في ظل عظمة الباري سبحانه ورعايته لكم... ومنها أن تتذكروا إن الله يَسّر لكم ألوان خصوصيّاتكم لتكونوا فيها نموذجاً يَحتذى بالمحبة والعفو والتسامح والتعايش الأخوي فيما بينكم.»

وكشف قصى لى سرا أدلى به صدام لأخيه سبعاوى عندما كان يودعه ونقله سبعاوى بدوره إلى عشيرة صدام حسين .. كان هذا السر يتعلق بالشخص الذى

يعتقد صدام حسين أنه المسئول عن سقوطه فى قبضة القوات الأمريكية والسبب يعود إلى العرف العشائرى حيث أن مثل هذه الأمور يكون فيها « طلايب» بمعنى الثأر من المسئول عنها وهو ما يمكن أن يؤدى إلى دخول عشيرة صدام « البيجات» فى صراع مع عشائر أخرى يمكن أن يتطور إلى ما لا تحمد عقباه .

يروى « قصى » أن سبعاوى ابراهيم الحسن وهو الأخ غير الشقيق للرئيس العراقى الراحل طلب من صدام أن يقول كلمته الأخيرة بشأن المسئول عن تسليمه للأمريكيين لأن القضية فيها « طلايب دم» .. حيث كان هناك تضارب بين شخصين أولهم قيس النامق صاحب المزرعة التى تم اعتقال صدام فى أحد سراديبها وشخص من مرافقى صدام يدعى محمد إبراهيم المسلط وكان من جماعة خير الله طلفاح وأشيع أنه اضطر إلى كشف مكان اختفاء صدام حسين تحت ضغط أمريكى وتهديد بهتك عرض بناته وزوجته .

١٣ - أشبعت الكلاب

قال صدام هذه المقولة لأخيه سبعاوى قبل أن يؤكد حقيقة الشخص الذى سلمه للأمريكيين وهى كناية عمن تمتعوا بخيرات صدام أيام مجده وعزه .. قال صدام « دمى برقبة الدوريين» ونفى بذلك التهمة عن محمد إبراهيم المسلط .. وأكد أن من سلمه هو قيس النامق وطباخه ونسيبه .

وأيا كان من سلم صدام حسين للأمريكيين وحقيقة ما دار خلال تلك اللحظات القاتمة فى تاريخه الشخصى وتاريخ العراق والعرب كأول زعيم عربى ينتهى بهذا الشكل المهين فإن تلك القضية الخلافية تحتاج إلى المزيد من البحث فى إطار مناقشة كاملة تعليقا على ما حدث فى ساحة الفردوس عندما سقط تمثال صدام حسين فى المشهد الهوليودى الشهير فى ٩ ابريل عام ٢٠٠٣ وهو ما سيضمه كتاب جديد أعمل على إصداره حاملا شهادات حية ممن عاصروا صدام وسقوطه المدوى .

١٤ - نبش القبر

لم تتوقف الإشاعات عن صدام وخوارقه ومعجزاته بعد الموت من جانب مؤيديه ومريديه ومن يمتون إليه بصلة قرابة أو جوار أو نسب .. كما لم تتوقف الإشاعات المغرضة عنه وعن جثته بعد دفنها من قبل أعدائه وكارهيه .. ولعل أقوى تلك الإشاعات هى ما قيل عن نبش القبر وإذا ما كان قد تم لنقل الجثة ودفنها فى موقع آخر خوفا عليها أو العبث بالجثة من قبل جماعات غاضبة .. إلا أن القصة الحقيقية

لعملية إعادة فتح القبر رواها لنا أحد أقاربه الذى طلب عدم كشف اسمه .

ويروى هذا الشخص الذى يقوم على خدمة القبر الكائن فى قرية العوجة مستطرد رأس صدام حسين أن عملية الدفن جرت فجر يوم ٣١ ديسمبر عام ٢٠٠٦ فى مكان كان صدام حسين يتخذه كمضيف يستقبل فيه المهنئين بالعيد أو من لهم مطالب من أهالى بلدته وعشيرته .. حيث تم خلع قطع رخام تغطى بهو المضيف الذى ترتفع فوقه قبة عالية ووضع الجثمان ثم تغطية المنطقة .. وبعد هذا التاريخ بستة أشهر جاء شخص من أهالى تكريت ليبلغنا أن « السيد الرئيس» زاره فى المنام وقال له « أبلغ أعمامى أن الماء يؤذينى» .. بعدها قام القائمون على الضريح بإلغاء كل مصادر المياه .. وبعد ثلاثة أيام جاء نفس الشخص وكرر نفس الكلام .. وبعد ثلاثة أيام أخرى جاء وكرر نفس الكلام ووقف فوق قبر صدام وقال « اللهم قد بلّغت .. اللهم فاشهد» .

وبعد يوم واحد جاء أحد أئمة المساجد فى تكريت ويدعى الملا جمعة الدهيمة وروى نفس الرؤية .. وكان لابد من اجتماع كبار العشيرة لبحث فتح القبر وإخراج الجثمان .. وبعد أن تمت الموافقة .. جرى إخراج الجثمان لنجد أن هناك عين ماء أسفله .

وبعد معالجة الأمر جرى تغسيل الجثمان وإعادة الصلاة عليه ليستقر فى موضعه من حينها تحت رعاية بعض أفراد العشيرة ويتوافد الناس على زيارته وقراءة الفاتحة له كل يوم من كافة أنحاء العراق .. كما يقرأ الزائرون الفاتحة لستة على مشاهد سبعة قبور تقع خارج القاعة التى دفن بها صدام حسين وهى قبور ابنيه عدى الذى كتب عليه « إن وعد الله حق .. قبر الشهيد المجاهد عدى صدام حسين استشهد بتاريخ ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٣ وقصى الذى كتب على قبره « لكل أجل كتاب » قبر الشهيد المجاهد قصى صدام حسين استشهد بتاريخ ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٣ ومصطفى ابن قصى الذى كتب عليه « إن وعد الله حق « قبر الشهيد المجاهد مصطفى قصى صدام حسين استشهد بتاريخ ٢٢ / ٧ / ٢٠٠٣ وعواد البندر قاضى محكمة الدجيل وبرزان إبراهيم التكريتى وطه ياسين رمضان وقبر على حسن المجيد.